**الفصل الأول**

**الربوة**

كان شهر مايو قد بدأ يُرخي ظلاله الثقيلة على تلال المقطم. الشمس تميل إلى الغروب، والهواء يحمل رائحة الغبار والحجارة القديمة المختلطة برائحة الياسمين البعيدة القادمة من الحدائق المنخفضة.

صعد رامز السلم الحجري المؤدي إلى الربوة كما يفعل كل مساء منذ أن بدأت إجازته. أربعون سنة وثلاثة أشهر. هذا الرقم يلاحقه كظلٍّ لزج. أربعون سنة، وزوجته حنان في أوروبا منذ أسبوعين في زيارة لشقيقتها، والفيلا الكبيرة فارغة إلا من صوت خطواته وصرير الأبواب.

جلس على المقعد الحجري تحت شجرة الكافور القديمة، وأخرج سيجارته. أبعد من هنا كانت القاهرة تمتد كبحرٍ من الأنوار البرتقالية والرمادية. تذكّر فجأة الأميرة نسل شاه التي كان يقرأ عنها وهو طفل في مجلة قديمة، تلك الأميرة الفارسية التي كانت تقف على شرفة قصرها وتنتظر فارسًا لا يأتي أبدًا. ابتسم بسخرية من نفسه. في الأربعين لم يعد أحد ينتظر فارسًا، ولا أميرة.

ثم رآها.

كانت تقف على بعد خمسة عشر مترًا تقريبًا، ظهرها إليه، تنظر إلى المدينة. ثوبها أبيض ناصع، قماش رقيق كأنه خيوط الحرير الممزوجة بزبد البحر والثلج، يتمايل مع النسيم الخفيف ويلتصق بجسدها النحيل. شعرها الأسود مرسل حتى منتصف ظهرها، ويحركه الهواء ببطء.

لم يسمع خطواتها. كأنها ظهرت من العدم.

رفع رامز رأسه ببطء، وأطفأ سيجارته تحت قدمه. شعور غريب مرّ في صدره، شيء بين الدهشة والقلق والفضول. نهض ومشى نحوها دون أن يدري لماذا.

سمعت وقع قدميه فالتفتت.

وجهها كان صغيرًا، شبه طفولي، لكن عينيها العسليتين العميقتين لم تكونا عيني طفلة. فيهما شيء قديم وهادئ ومخيف في آنٍ واحد. ابتسمت ابتسامة خجولة قصيرة، ثم عادت تنظر إلى المدينة كأنها لم تتفاجأ بوجوده.

قال بصوت حاول أن يجعله عاديًا:

ـ مساء الخير... لم أركِ هنا من قبل.

أجابته بصوت ناعم واضح، فيه لكنة خفيفة غريبة:

ـ مساء الخير. أنا... أزور المكان لأول مرة.

وقف إلى جوارها، وترك المسافة بينهما مترًا ونصفًا. نظر إلى الثوب من قرب. القماش لم يكن قطنًا ولا حريرًا عاديًا. كان يلمع بلمعان باهت كأن الضوء ينعكس من داخله لا من خارجه.

سألها بعد صمت قصير:

ـ هل أنتِ من القاهرة؟

هزّت رأسها نفيًا ببطء.

ـ لا. من مكان أبعد.

ابتسم رامز ابتسامة الرجل الذي اعتاد المزاح مع الغرباء:

ـ أبعد من أين؟ من الفيوم؟ من الصعيد؟

التفتت إليه هذه المرة تمامًا. نظرت في عينيه لحظة طويلة، ثم قالت بهدوء غريب:

ـ أبعد من ذلك بكثير.

ضحكت هي أولًا، ضحكة قصيرة خافتة، فضحك هو معها رغم أنه لم يفهم تمامًا. شعور غامض بالألفة مرّ في صدره مثل تيار كهربائي خفيف. كأنه يعرف هذه العيون من مكان ما، لكنه لم يستطع أن يتذكر أين.

ظلا يقفان هكذا دقائق. هي تنظر إلى المدينة، وهو ينظر إليها من طرف عينه. ثم قالت فجأة:

ـ اسمي ناني.

ـ رامز.

مدّت يدها. كانت أصابعها باردة رغم حرارة المساء. صافحها، وأحسّ أن جلدها ناعم بشكل غير عادي، كأن الزمن لم يمر عليه.

بعد قليل اعتذرت بهدوء وقالت إنها يجب أن تعود. ابتعدت بضع خطوات ثم التفتت مرة أخيرة، ابتسمت تلك الابتسامة الخجولة نفسها، واختفت خلف منعطف الصخور.

رامز بقي واقفًا مكانه ينظر إلى المكان الذي اختفت فيه. الشمس كانت قد غابت تمامًا، والأنوار في القاهرة تزداد سطوعًا.

أخرج سيجارة جديدة وأشعلها. دخان السيجارة ارتفع ببطء في الهواء الساكن.

ابتسم لنفسه في الظلام وقال بصوت خافت:

ـ ناني... اسم غريب.

ثم نزل السلم الحجري عائدًا إلى الفيلا الفارغة، والشعور الغامض بالألفة لا يزال يتحرك في صدره مثل شيء حيّ لا يريد أن ينام.

**الفصل الثاني**

**الفستان والزمن**

في اليوم التالي جاء إلى الربوة في الساعة نفسها تقريبًا. كان الشمس أعلى قليلاً، والحرارة أشد. جلس على المقعد الحجري وأشعل سيجارته، لكنه لم يستطع التركيز على المدينة هذه المرة. كانت عيناه تعودان مرارًا إلى المنعطف الصخري الذي اختفت خلفه البارحة.

بعد ربع ساعة ظهرت.

كانت ترتدي الثوب الأبيض نفسه. القماش يتمايل حول ساقيها النحيلتين كأنه حي. مشيت بخطوات هادئة حتى اقتربت منه، ثم جلست على الطرف الآخر من المقعد دون أن تطلب إذنًا.

قال وهو ينظر إليها من الجانب:

ـ لم أكن متأكدًا أنكِ ستعودين.

ابتسمت ابتسامتها القصيرة الخجولة:

ـ وأنا لم أكن متأكدة أنك ستنتظر.

صمتا دقيقة. رامز أطفأ سيجارته تحت قدمه هذه المرة بدلًا من أن يرميها. سألها فجأة، والصوت يخرج منه أثقل مما أراد:

ـ هذا الثوب... من أين؟

نظرت إلى قماشها كأنها تراه لأول مرة، ثم رفعت عينيها إليه:

ـ صنعه أبي. قماش غير موجود هنا.

ـ غير موجود في القاهرة تعني؟

هزّت رأسها ببطء.

ـ غير موجود في هذا الزمن.

ابتسم رامز ابتسامة الرجل الذي سمع نكتة غريبة. لكن الابتسامة لم تكتمل. شيء في صوتها كان جادًا تمامًا.

قالت بهدوء، وهي تنظر إلى المدينة لا إليه:

ـ أبي اخترع آلة. آلة صغيرة... تنقل الإنسان عبر الزمن. أنا جئت من هناك. من بعد سبعين سنة تقريبًا.

رامز ضحك هذه المرة ضحكة قصيرة عالية، ثم توقف فجأة حين رآها لا تضحك معه. عيناها العسليتان كانتا ثابتتين عليه الآن، وفيهما ذلك العمق القديم الذي لاحظه بالأمس.

قال بصوت أقل ثقة:

ـ تقصدين... أنكِ من المستقبل؟

أومأت برأسها مرة واحدة.

ـ نعم.

ـ وكم عمركِ الآن... هناك؟

ـ أربع وعشرون.

نظر إلى وجهها. الوجه شبه الطفولي، البشرة الصافية، غياب أي خط حول العينين. أربع وعشرون سنة كانت تبدو منطقية. أما هو... فقد تجاوز الأربعين بثلاثة أشهر. الفرق بينهما كان يكفي لأن تكون ابنته.

ابتلع ريقه. شعور غريب بالحرج مرّ في صدره. كيف ينظر رجل في سنه إلى فتاة بهذا العمر بهذه الطريقة؟ كيف ينجذب إلى صوتها وإلى الطريقة التي يتحرك بها القماش على جسدها؟

قالت فجأة، كأنها تقرأ ما يدور في رأسه:

ـ أنت تفكر في الفارق. أعرف.

رفع رأسه بسرعة. هي كانت تبتسم الآن ابتسامة مختلفة، فيها شيء من الحزن والمعرفة معًا.

ـ لا تخف. أنا لا أنظر إليك كرجل مسن. أنا أنظر إليك كـ... شخص أعرفه منذ زمن طويل.

رامز لم يرد. القلب كان يدق في أذنيه. الألفة الغامضة التي أحس بها بالأمس عادت أقوى. كأنه جلس مع هذه الفتاة مئات المرات من قبل، على هذا المقعد نفسه، تحت هذه الشجرة.

مدت يدها ولمست طرف كمه لمسة خفيفة جدًا، ثم سحبتها بسرعة كأنها أخطأت.

ـ غدًا سأأتي في الموعد نفسه. إذا أردت أن تسمع المزيد عن الآلة... أو عن أي شيء آخر.

نهضت. الثوب الأبيض تحرك مع حركتها، وكشف للحظة عن جزء من ساقها البيضاء الناعمة. رامز أدار وجهه بسرعة، لكنه كان قد رأى.

ابتعدت بضع خطوات، ثم التفتت مرة أخيرة وقالت بصوت خافت:

ـ اسم الآلة... «الامتداد». أبي كان يحب هذا الاسم. كان يقول إن المستقبل ليس إلا امتدادًا طبيعيًا للماضي.

ثم اختفت خلف الصخور كما فعلت بالأمس.

رامز بقي جالسًا وقتًا طويلًا بعد أن اختفت. الشمس بدأت تميل. أخرج سيجارة جديدة، لكن يده كانت ترتجف قليلًا وهو يشعلها.

نظر إلى مكان جلوسها على المقعد. لا يزال دافئًا.

همس لنفسه، والصوت يكاد لا يُسمع:

ـ أربع وعشرون... وأنا أربعون.

ثم أضاف بعد صمت، والدخان يخرج من فمه ببطء:

ـ ومع ذلك... أشعر أنني أعرفها منذ الأزل.

**الفصل الثالث**

**الكتب والنسبية**

في اليوم الثالث جاء مبكرًا. جلس على المقعد الحجري قبل الموعد بنصف ساعة، ووضع إلى جواره كتابين كان قد أخرجهما من مكتبته في الصباح: مقدمة ابن خلدون، وكتابًا صغيرًا عن النظرية النسبية كان قد اشتراه منذ سنوات ولم يكمله.

حين ظهرت ناني هذه المرة لم تكن ترتدي الثوب الأبيض. كانت في ثوب رمادي فاتح، بسيط، لكن القماش نفسه يلمع اللمعان الغريب ذاته. جلست إلى جواره مباشرة، أقرب مما كانت في اليومين السابقين.

نظر إلى الكتابين ثم إليها وقال:

ـ أحضرتُ شيئًا. ربما يهمكِ.

أخذت مقدمة ابن خلدون أولًا، قلبت صفحاتها بأصابعها الباردة، ثم قالت بهدوء:

ـ هذا الرجل كان يفهم الزمن بطريقة غريبة. كان يراه دورة، لا خطًا مستقيمًا. أبي كان يحبه كثيرًا.

ثم وضعت الكتاب جانبًا وأخذت الثاني. تصفحت بضع صفحات عن أينشتاين والزمكان، وابتسمت ابتسامة صغيرة مألوفة:

ـ هذا أقرب. أبي كان يقول إن أينشتاين لم يُكمل الفكرة. الزمن ليس مجرد بُعد رابع... الزمن امتداد. مثل النهر الذي يظن الناس أنه يجري إلى الأمام فقط، بينما هو في الحقيقة موجود كله دفعة واحدة: المنبع والمصب والوسط.

رامز أشعل سيجارته ونظر إليها من الطرف.

ـ تقصدين أن الماضي والمستقبل موجودان معًا الآن؟

ـ نعم. نحن فقط لا نستطيع أن نراهما في اللحظة نفسها. الآلة التي صنعها أبي... تجعلك ترى.

صمتت لحظة، ثم أضافت بصوت أخف:

ـ في زمني، الفيوم لم تعد محافظة صغيرة. صارت مدينة ناطحات سحاب زجاجية ترتفع فوق بحيرة قارون. الناس يسكنون في طوابق تُرى من بعيد كأنها مرايا عملاقة. وأبي... كان طبيب عيون، متخصصًا في جراحات الليزر. بعد أن تقاعد بدأ يعمل على الآلة. كان يقول إن العين البشرية هي أول آلة زمن عرفها الإنسان، لأنها تخزن الصور.

رامز استمع دون أن يقاطع. صوتها كان يحول الكلام العلمي إلى شيء دافئ وحميم، كأنها تهمس أسرارًا لا تقال إلا في الغرف المغلقة. كان يشعر أن كل معلومة جديدة تقربه منها أكثر، وفي الوقت نفسه تجعله يخاف أكثر من المسافة الزمنية بينهما.

سألها بعد صمت:

ـ وكيف جئتِ إلى هنا بالضبط؟ إلى هذه الربوة؟

نظرت إلى المدينة البعيدة وقالت:

ـ الآلة لا تنقلك إلى مكان عشوائي. تنقلك إلى النقطة التي يكون فيها أقوى ارتباط عاطفي في الخط الزمني. أبي ضبطها على اسمك. لم أخبركِ من قبل... لكنني كنت أعرف أنني سأجدك هنا.

الكلمات سقطت بينه وبينها ثقيلة وهادئة. رامز أحس بقلبه يتسارع. الألفة الغامضة التي كانت تلاحقه منذ اليوم الأول تحولت فجأة إلى شيء ملموس ومخيف.

أدار وجهه نحوها. عيناها العسليتان كانتا قريبتين جدًا الآن. للحظة واحدة تخيل نفسه يمد يده ويلمس خدها، ثم تراجع عن الفكرة فورًا. أربعون سنة. أربع وعشرون سنة. الفرق كان يقف بينهما كجدار زجاجي شفاف.

ناني كأنها شعرت بما يدور في داخله، ابتسمت ابتسامة حزينة قصيرة وقالت:

ـ لا تفكر في الأرقام كثيرًا. الأرقام خدعة من خدع الزمن.

بعد ساعة نهضت لتذهب. قبل أن تبتعد مدت يدها وأخذت كتاب النسبية الصغير.

ـ سأعيده إليك غدًا. أريد أن أقرأ الفصل عن انحناء الضوء مرة أخرى.

ابتسم رامز رغم الحيرة:

ـ خذيه. هو لكِ.

نزلت من الربوة بخطوات هادئة، والثوب الرمادي يتمايل حولها حتى اختفت.

في المساء، داخل الفيلا الفارغة، جلس رامز في مكتبه وأخرج من الدرج السفلي دفترًا قديمًا كان يكتب فيه أحيانًا. قلب الصفحات حتى وجد قصيدة قصيرة كتبها قبل سنوات ولم ينهِها:

*الزهرة التي رأيتها في الحلم*

*ظلت على الوسادة بعد أن استيقظت*

*رائحتها لم تكن من هذا العالم*

*ومع ذلك... كانت حقيقية تمامًا*

قرأ الأبيات مرتين، ثم أغلق الدفتر ببطء.

خارج النافذة كانت أنوار القاهرة تومض كنجوم قريبة. وفوق في المقطم، على الربوة الفارغة الآن، كان المقعد الحجري لا يزال يحمل دفء جسدها.

**الفصل الرابع**

**الغياب**

في اليوم الرابع لم تأتِ.

صعد رامز إلى الربوة في الموعد المعتاد، وجلس على المقعد الحجري، وأشعل سيجارته الأولى. انتظر ساعة كاملة. ثم ساعة أخرى. الشمس مالت، والظل امتد تحت شجرة الكافور، وهو ما زال يحدق في المنعطف الصخري كأنه يستطيع أن يستدعيها بقوة النظر.

كره نفسه.

كره الطريقة التي كان قلبه يدق بها كلما سمع صوت حصى يتدحرج. كره أنه رجل في الأربعين ينتظر فتاة تقول إنها من المستقبل كأنه مراهق في أول حب. أطفأ السيجارة بقوة تحت قدمه ونزل السلم الحجري غاضبًا من نفسه أكثر مما هو غاضب من غيابها.

في اليوم الخامس جاء أيضًا. هذه المرة أحضر معه الكتاب الذي أعارها إياه، كحجة واهية. جلس ساعة ونصفًا. لم تأتِ.

في الليلة الثانية نام بصعوبة. كان يرى وجهها كلما أغلق عينيه، ويسمع صوتها يقول: «الزمن امتداد».

في اليوم السادس صعد مبكرًا. الجو كان غائمًا، والهواء أثقل. جلس، وأخرج سيجارة، وقبل أن يشعلها ظهرت.

كانت ترتدي ثوبًا أسود هذه المرة. القماش نفسه الغريب، لكنه أسود تمامًا كأنه امتص كل الضوء. وجهها شاحب، وعيناها العسليتان محمرّتان. كانت تبكي بصمت.

نهض رامز بسرعة ومشى نحوها. لم يسأل. مد ذراعيه وغمرها في حضنه. جسدها كان يرتجف ضد صدره. شمّ رائحة شعرها المختلطة بشيء معدني خفيف، كرائحة آلات أو كهرباء.

بكت دقائق طويلة دون أن تنطق. هو كان يربت على ظهرها بيده الكبيرة، ويشعر بقلبه ينقبض بطريقة لم يعرفها منذ سنوات.

أخيرًا رفعت رأسها. الدموع لا تزال على خديها. قالت بصوت مبحوح:

ـ أبي مات.

الكلمات سقطت بسيطة وقاسية.

ـ الآلة... كانت مرتبطة به بطريقة ما. بعد موته بدأت تتوقف. لم يعد أمامي إلا رحلات قليلة جدًا. ربما رحلة واحدة أخيرة.

أمسك وجهها بين كفيه، ومسح الدموع بإبهاميه. عيناها كانتا أقرب إليه من أي وقت مضى. الحزن فيها عميق وقديم، كأنها حملته سنوات لا أيامًا.

همست، والصوت يكاد ينكسر:

ـ إذا لم أتمكن من العودة بعد اليوم... تذكر أنني أحبك.

قبل أن يستطيع الرد، سحبته من يده نحو الفيلا. لم يقاوم. الباب أُغلق خلفهما، والظلام النسبي للمنزل الفارغ ابتلعهما.

في غرفة النوم خلعت هي الثوب الأسود دفعة واحدة. وقفت أمامه عارية تمامًا: ثديان صغيران مدوران، حلمات وردية منتصبة من البكاء والبرد، بطن مسطح ناعم، وشعر عانة أسود كثيف يعلو كسًّا ورديًا كان قد بدأ يتبلل. رامز خلع ملابسه بسرعة. قضيبه كان منتصبًا سميكًا، العروق بارزة، والرأس لامع من السائل الشفاف الذي سبق اللذة.

دفعها على السرير. ركع بين ساقيها وافتح شفريها بإصبعيه، ثم دفن وجهه في كسها. لعق الفتحة الضيقة بشراهة، مصّ بظرها بقوة حتى ارتجف جسدها وصرخت أول صرخة مكتومة. أدخل لسانه أعمق، يتذوق ملوحتها ودموعها المختلطة، حتى أصبحت ساقاها ترتجفان على كتفيه.

بعد دقائق رفع رأسه، فمه لامع بلعابها، وصعد فوقها. وضع رأس قضيبه على فتحة كسها الضيقة ودفع بقوة واحدة. دخل حتى آخره. صرخت من الألم واللذة معًا، أظافرها غرست في ظهره. بدأ ينيكها بعنف، حوضه يضرب بقوة، كيساه يلطمان مؤخرتها مع كل دفعة عميقة. كانت تئن بصوت عالٍ مكسور:

ـ نيكني... أعمق... املأيني...

أمسك ثدييها الصغيرين وعصرهما، حلماتها بين إصبعيه، ثم رفع ساقيها ووضعها على كتفيه وضرب أعمق فأكثر. صوت ارتطام اللحم باللحم يملأ الغرفة مع أنينها. شعر بالسائل يغلي في خصيتيه، فدفع بأقصى قوة وفرغ داخلها دفعة ساخنة كثيفة، يئن كحيوان جريح وهو يصب كل ما فيه في رحمها.

ظلا ملتصقين وقتًا طويلًا. قضيبه لا يزال داخلها، ينبض ببقايا اللذة، والمني الأبيض يسيل ببطء من حولهما على الملاءة. هي كانت تبكي من جديد، لكن دموعها هذه المرة مختلفة. هو كان يقبّل جبينها وملح دموعها، والكلمات التي همست بها لا تزال تدور في رأسه مثل جرس إنذار بعيد:

«إذا لم أتمكن... تذكر أنني أحبك».

**الفصل الخامس**

**الانتظار الطويل**

بعد تلك الليلة لم تختفِ ناني فورًا. جاءت في اليوم التالي، ثم الذي يليه. لكن شيئًا ما كان قد تغيّر.

الخوف في عينيها أصبح أوضح. لم يعد خوفًا خفيفًا يمرّ كسحابة. كان يستقر في عمق العسليّتين ويبقى هناك حتى وهي تبتسم. كانت تجلس إلى جواره على المقعد الحجري، تضع رأسها أحيانًا على كتفه، وتتحدث عن أشياء صغيرة: عن رائحة المطر في المستقبل، عن كيف أن الأشجار في زمنها تُزرع في طوابق زجاجية، عن أبيها الذي كان يضحك حين ينجح تجربة جديدة. لكن في نهاية كل جملة كان الصمت يعود أثقل من السابق.

رامز كان يذهب كل يوم. حتى حين غيّم الجو أو هبّت رياح الخماسين، كان يصعد السلم الحجري ويجلس في المكان نفسه. إجازته كانت تمتد حتى أوائل ديسمبر، وكان يتمسك بهذا الامتداد كمن يتمسك بحبل آخر خيط فيه.

مع مرور الأسابيع بدأ الصيف ينحسر. أوراق شجرة الكافور تحولت تدريجيًا من الأخضر الداكن إلى ذهبٍ باهت. الهواء صار يحمل في المساء برودة خفيفة تأتي من جهة الصحراء. ناني كانت تأتي متأخرة أحيانًا، وتغادر مبكرة. في إحدى المرات أمسكت يده بقوة فجأة وقالت:

ـ لا تنتظرني كثيرًا إذا تأخّرت. الآلة... لم تعد تطيعني كما كانت.

ابتسم هو ابتسامة حاول أن يجعلها مطمئنة، لكنه رأى في عينيها أنها لا تصدّق ابتسامته.

في أواخر أكتوبر جلسا والصمت أطول من الكلام. كانت تضع كفها داخل كفه، وأصابعها باردة دائمًا. قال لها مرة:

ـ لو بقيتِ هنا... لو لم تعودي أبدًا؟

نظرت إليه نظرة طويلة، ثم هزّت رأسها ببطء:

ـ الزمن لا يرحم من يحاول البقاء في المكان الخطأ. أبي علّمني ذلك.

في نوفمبر أصبحت الزيارات أقصر. مرة جاءت لربع ساعة فقط، وقفت ولم تجلس، وقالت إن الشحن في الآلة ينفد أسرع مما توقعت. قبل أن تذهب قبلته على خده قبلة سريعة وجافة، وهمست:

ـ تذكر ما قلته لك.

ثم نزلت السلم دون أن تلتفت.

في الأسبوع الأول من ديسمبر جاء رامز إلى الربوة كما يفعل كل يوم. الهواء كان باردًا هذه المرة، والسماء رمادية منخفضة. انتظر ساعة. ثم ساعتين. أشعل سيجارة بعد أخرى حتى امتلأت الأرض من حوله بأعقابها.

الغروب جاء مبكرًا. الأنوار في القاهرة بدأت تومض واحدة بعد الأخرى. المقعد الحجري إلى جواره فارغ وبارد.

نزل السلم ببطء. في كل درجة كان ينتظر أن يسمع صوت خطواتها خلفه. لم يسمع شيئًا.

في الليلة نفسها جلس في مكتبه داخل الفيلا الفارغة، وأخرج القصيدة القديمة التي كتبها عن الزهرة. قرأها مرة واحدة، ثم أغلق الدفتر ووضع رأسه بين يديه.

خارج النافذة كان المقطم مظلمًا تمامًا. الربوة فارغة. المقعد الحجري يبرد تحت السماء الشتوية.

وللمرة الأولى منذ مايو، خطر بباله احتمال مرعب وبسيط في آنٍ واحد:

أنها لم تكن موجودة أصلًا.

وأن كل شيء... الثوب، والعينين العسليتين، والآلة، والكلمات عن الزمن والامتداد، والليلة التي بكى فيها جسداها معًا... كان مجرد حلم طويل انكسر فجأة على صخرة الواقع.

لكن رائحة شعرها كانت لا تزال على وسادته.

وأثر جسدها على الملاءة لم يكن قد اختفى تمامًا.

**الفصل السادس**

**الحقيبة**

في ليلة الخامس عشر من ديسمبر بدأ المطر.

لم يكن مطرًا خفيفًا معتادًا في القاهرة. كان غزيرًا، مستمرًا، يضرب نوافذ الفيلا كأنه يريد أن يدخل عنوة. رامز كان جالسًا في مكتبه منذ ساعات، يحاول أن يقرأ كتابًا عن الألغاز التاريخية فلم يستطع تجاوز الصفحة الثالثة. الكلمات كانت تتراقص أمام عينيه، ووجه ناني يتداخل معها في كل سطر.

بعد منتصف الليل قام ودخل حجرة النوم. أراد أن يأخذ من الدولاب كتابًا آخر كان قد وضعه هناك منذ شهور. فتح الباب العلوي، ومد يده في العتمة. أصابعه لمست شيئًا جلديًا قديمًا. سحب. سقطت على الأرض حقيبة سفر بنية اللون، متوسطة الحجم، كان يعرفها جيدًا.

حقيبة حنان.

كانت قد تركتها هنا قبل سفرها إلى أوروبا، وقالت إنها ستأخذها في الرحلة القادمة. رامز انحنى ليلتقطها. القفل لم يكن مغلقًا بإحكام. انفتح من تلقاء نفسه حين رفعها، وسقط منها شيء أبيض ناعم على السجادة.

الثوب.

الثوب الأبيض نفسه.

القماش الذي يشبه خيوط الحرير وزبد البحر والثلج. القماش الذي يلمع من داخله. الثوب الذي رأته ناني ترتديه في أول يوم على الربوة، والذي اختفى معها كلما رحلت.

رامز جمد في مكانه.

المطر كان يضرب الزجاج بقوة الآن. الغرفة مضاءة بمصباح السرير الأصفر فقط. انحنى ببطء، كمن يخاف أن يلمس شيئًا مقدسًا أو ملعونًا، ورفع الثوب بيديه. القماش بارد وناعم، تمامًا كما يتذكر. قربّه من وجهه. رائحة خفيفة مألوفة صعدت إلى أنفه: رائحة شعر ناني المختلطة بشيء معدني قديم.

وضع الثوب على السرير وفتح الحقيبة بالكامل. في داخلها كانت ملابس أخرى لحنان، وأوراق قديمة، وصورة واحدة بالأبيض والأسود التقطت لهما قبل سنوات طويلة في حديقة الأزبكية. في الصورة كان هو شابًا في أوائل العشرينيات، وهي إلى جواره... الوجه نفسه. العيون العسلية نفسها. الابتسامة الخجولة نفسها.

لكن في الصورة كانت حنان في العشرينات.

وناني التي جاءت إلى الربوة كانت تقول إنها في الرابعة والعشرين.

الفرق الزمني انهار فجأة أمام عينيه كجدار من زجاج.

جلس على حافة السرير، والثوب الأبيض في حجره. المطر يزداد. فهم ببطء، قطعة بعد قطعة، كمن يركب لغزًا كان أمامه طوال الوقت ولم يره.

ناني لم تكن فتاة من المستقبل جاءت بالصدفة.

ناني كانت حنان.

حنان التي عاشت معه عشرين سنة.

حنان التي رفضت التصوير طوال تلك السنوات.

حنان التي كانت تنظر إليه أحيانًا بنظرة بعيدة فيها خوف قديم لم يفهمه أبدًا.

حنان التي سافرت إلى أوروبا... أو ادّعت ذلك.

وهي التي جاءت من المستقبل القريب نسبيًا، من بعد عشرين سنة من حياتهما معًا، لتعود إلى اللحظة التي بدأ فيها كل شيء على الربوة.

الألفة التي أحس بها منذ اليوم الأول لم تكن غامضة. كانت ذاكرة جسد وروح يعرفان بعضهما منذ زمن طويل.

قام من السرير كالمجنون. ارتدى معطفه بسرعة وخرج إلى المطر. الماء البارد يضرب وجهه ويختلط بما لم يعد يستطيع أن يمنعه من النزول من عينيه. نزل السلم الحجري المؤدي إلى الربوة في الظلام والمطر، نصف راكض. المقعد الحجري كان فارغًا وغارقًا بالماء. شجرة الكافور تميل مع الريح.

وقف في المكان الذي وقفت فيه أول مرة، والثوب الأبيض الذي حمله معه تحت المعطف يلتصق بصدره من البلل.

رفع رأسه إلى السماء السوداء الممطرة وصاح بصوت مبحوح غرقه المطر:

ـ ناني...

ـ حنان...

لم يجبه أحد.

فقط صوت المطر على الصخور، ورائحة التراب المبتل، والشعور الثقيل بأن الزمن كله قد انهار فوقه دفعة واحدة، وتركه وحيدًا يعرف الحقيقة أخيرًا.

**الفصل السابع**

**الرحلة الأخيرة**

في اللحظة التي توقف فيها قلب أبيها، بدأت الآلة تموت معه.

ناني كانت جالسة على الأرض بجانب السرير المعدني في المختبر السري تحت المنزل القديم على أطراف الفيوم الجديدة. الشاشات الزجاجية المحيطة بها كانت تومض بالأحمر المتقطع. الضوء الأزرق الخافت الذي كان يملأ الغرفة دائمًا بدأ يخفت تدريجيًا كشمعة في آخر نفس.

يد أبيها كانت لا تزال دافئة حين أمسكتها. عيناها العسليتان ممتلئتان بدموع لم تسمح لها بالسقوط بعد. كان قد ابتسم لها في اللحظة الأخيرة وقال بصوت ضعيف:

ـ الامتداد... لا ينكسر يا ناني. فقط... يتغيّر شكله.

ثم أغمض عينيه.

الآن، بعد ساعة واحدة فقط، كانت صفارات الإنذار البعيدة تقترب. شرطة الزمن. كانوا يراقبون المنزل منذ أشهر. الآلة غير مرخصة، والتجارب على الخطوط الزمنية الشخصية ممنوعة منذ ثلاثين سنة. أبوها كان يعرف أن الوقت ضيق. كانت تعلم هي أيضًا.

وقفت. مسحت وجهها بسرعة. ارتدت الثوب الأبيض الذي كان معلقًا على الحائط منذ أن صنعه أبوها قبل سنوات: القماش الذي يشبه خيوط الحرير وزبد البحر والثلج. القماش الذي لا يوجد له مثيل في أي زمن. ثم فتحت الدرج السري وأخرجت القرص الصغير الشفاف الذي يحتوي على آخر شحنة كاملة.

الآلة كانت في وسط الغرفة: هيكل دائري من معدن أسود لامع، في داخله مقعد واحد وحلقة من الضوء كانت تضعف الآن. وضعت القرص في الفتحة. الشاشات أضاءت للحظة أخيرة بلون أزرق باهت.

ظهرت على الشاشة إحداثيات واحدة فقط كان أبوها قد حفظها قبل موته بيومين:

**القاهرة – المقطم – الربوة – مايو 1992**

الرقم الذي يمثل أقوى ارتباط عاطفي في الخط الزمني كله.

سمعت أصوات أقدام معدنية في الممر العلوي. الأبواب الخارجية تُكسر. لم يعد هناك وقت.

جلست على المقعد. وضعت يدها على اللوحة الجانبية كما علّمها أبوها مئات المرات. الضوء الأزرق التف حولها كدائرة مائية. في اللحظة الأخيرة تذكرت كلماته التي كان يكررها كلما جلسا معًا أمام الآلة:

«المستقبل ليس إلا امتدادًا طبيعيًا للماضي... لا تناقض. أنتِ لا تغيّرين شيئًا. أنتِ فقط... تعودين إلى المكان الذي كنتِ فيه دائمًا».

أغمضت عينيها.

الضغط جاء أولًا في الصدر، ثم في الرأس، ثم في كل خلية من جسدها. كأن الزمن كله يُسحب من تحتها كسجادة. سمعت صوتًا بعيدًا يشبه صرخة معدن يتمزق، ثم لا شيء.

حين فتحت عينيها كانت الشمس تميل إلى الغروب فوق تلال المقطم. الهواء يحمل رائحة الغبار والحجارة القديمة والياسمين البعيد. تحتها المقعد الحجري، وشجرة الكافور، والقاهرة تمتد كبحر من الأنوار البرتقالية.

كانت قد وصلت.

□□□ أصوات الشرطة والصفارات والمختبر المحتضر اختفت كلها. بقي فقط صوت الريح الخفيفة في أوراق الكافور، وقلبها الذي يدق بقوة هي الأولى منذ موت أبيها.

مدت يدها وتحسست القماش الأبيض على جسدها. ثم نظرت إلى الأسفل، نحو السلم الحجري.

بعد قليل سيصعد رجل في الأربعين، يحمل في عينيه تعب السنين ووحدة الفيلا الفارغة. رجل تعرفه هي منذ عشرين سنة، بينما هو لم يرها بعد.

ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة، ومسحت آخر دمعة جافة من طرف عينها.

همست لنفسها، والصوت يكاد يضيع في الريح:

ـ مرحبًا... رامز.

ثم استدارت نحو المدينة، وانتظرت.

**الفصل الثامن**

**المكتب**

في صباح يوم خميس من شهر آذار عام 1972، دخلت ناني مبنى الشركة الصغيرة في شارع قصر النيل للمرة الأولى.

كانت ترتدي فستانًا بيج بسيطًا اشترته من محل في العتبة قبل ساعة، وحقيبة يد بنية قديمة. شعرها الأسود مربوط بسحبة واحدة خلف رأسها. الثوب الأبيض الخاص بقي مطويًا في قاع الحقيبة الكبيرة التي أخفتها في غرفة مستأجرة رخيصة في حي السيدة زينب. لم تكن تجرؤ على ارتدائه هنا. ليس بعد.

صعدت السلم الخشبي إلى الطابق الثاني. لافتة نحاسية صغيرة على الباب: «مكتب المهندس رامز عبد الحميد – استشارات هندسية».

يده كانت ترتجف وهي تطرق.

ـ تفضلي.

الصوت من الداخل كان شابًا، أوضح وأعلى مما تتذكره من السنوات اللاحقة. دخلت. الغرفة متوسطة، فيها مكتب خشبي كبير، وخرائط معلقة، ونافذة تطل على الشارع. خلف المكتب كان يجلس هو.

رامز في الثالثة والعشرين. شعره أسود كثيف بلا خيوط رمادية، وجهه نحيل خالٍ من تجاعيد الأربعين، عيناه أكثر إشراقًا وأقل تعبًا. كان يرتدي قميصًا أبيض وأكمام مطوية، ويبدو منشغلًا برسم على ورقة كبيرة.

رفع رأسه.

للحظة واحدة تقاطعت نظراتهما. ناني أحست أن كل السنوات العشرين التي عاشتها معه تنهار وتتجمع في هذه النظرة الأولى التي لم تحدث له بعد. ابتلع ريقها. اليد التي كانت تمسك الحقيبة ارتعشت بوضوح.

قال وهو يبتسم ابتسامة مهذبة:

ـ صباح الخير. كيف يمكنني مساعدتكِ؟

الصوت نفسه، لكن بدون خشونة السنين. فتحت فمها ثم أغلقته. الكلمات التي رتبتها في ذهنها طوال الليل تلاشت.

أخيرًا قالت بصوت منخفض:

ـ قرأت إعلانكم... عن وظيفة سكرتيرة. أنا... أبحث عن عمل.

رامز نظر إليها باهتمام أكبر. وضع القلم جانبًا واتكأ على كرسيه.

ـ هل معكِ خبرة سابقة؟

ـ لا. لكنني أتعلم بسرعة. وأنا... جيدة في الترتيب والمواعيد.

ابتسم أكثر. شيء في عينيها جعله يطول النظر. قال بعد لحظة، وكأنه يتحدث لنفسه:

ـ في عينيكِ شيء رائع... حنون. غريب.

ناني شعرت بحرارة تصعد إلى وجهها. هذا هو السطر الذي قاله لها بعد عشرين سنة وهو يروي لها كيف أحبها من النظرة الأولى. الآن تسمعه وهي تعيشه.

جلس إلى المكتب المقابل له بعد أن أشار إليها. طرح عليها أسئلة عن التعليم والعنوان. كانت تجيب بإجابات قصيرة مُعدّة مسبقًا. كلما اقترب سؤال من الماضي أو العائلة، كانت ترتجف داخليًا وتجيب بغموض.

في نهاية المقابلة قال:

ـ الوظيفة لكِ. ابدئي غدًا إذا أردت.

ابتسمت ابتسامة صغيرة خائفة. شكرته ونهضت. قبل أن تصل إلى الباب قال فجأة:

ـ لحظة... هل يمكن أن نلتقط صورة سريعة للملف؟ لدينا مصور في الطابق الأرضي.

تجمدت.

هذا هو الاختبار الأول. رفضها للتصوير كان أحد الأشياء التي حافظت عليها طوال حياتهما معًا. لو سمحت الآن بصورة، قد تتغير أشياء كثيرة لاحقًا.

التفتت ببطء. ابتسامتها كانت معتذرة وحاسمة معًا:

ـ آسفة... أنا لا أحب الصور. مشكلة قديمة في العينين. الضوء يؤذيني.

رامز رفع حاجبيه للحظة، ثم هز رأسه متفهمًا:

ـ لا بأس. ليس ضروريًا.

خرجت من الغرفة وقلبها يطرق في أذنيها كطبل. نزلت السلم بسرعة. في الشارع وقفت لحظة تحت ظل عمارة قديمة، وأخذت نفسًا عميقًا.

نجحت.

هي الآن داخل حياته من الباب الأمامي، لا من الربوة.

وهي تعرف كل ما سيحدث بعد ذلك: الخطوبة، الزفاف، الليالي، السنوات، والخوف الذي سيسكن عينيها كلما اقترب مايو 1992.

لكنه هو... لا يعرف شيئًا بعد.

رفع رأسها إلى سماء القاهرة الصافية في آذار 1972، وهمست لنفسها بصوت لا يسمعه أحد:

ـ مرحبًا من جديد... يا رامز.

**الفصل التاسع**

**البناء البطيء**

الأشهر الأولى مرت كحلم مزدوج الطبقات.

ناني كانت تأتي كل صباح إلى المكتب قبل رامز بربع ساعة، ترتب الأوراق، تحضر القهوة، وتبتسم حين يدخل. هو كان ينظر إليها أكثر مما ينظر إلى الخرائط. بعد أسبوعين دعاها إلى الغداء. بعد شهر دعاها إلى السينما. بعد شهرين قال لها وهو يمشي معها على كوبري قصر النيل في المساء:

ـ أنا أحبك.

هي كانت تعرف أنه سيقولها في هذا المكان بالضبط، في هذا الأسبوع بالضبط. ومع ذلك ارتجف جسدها كله حين سمعته. أجابت بصوت خافت صادق:

ـ وأنا أيضًا.

الخطوبة كانت بسيطة. أهله في المنصورة، أهلها... قالت إنهم مسافرون في الخارج ولا يستطيعون الحضور. رامز لم يسأل كثيرًا. كان سعيدًا بما يكفي لأن يتجاهل الثغرات.

في ليلة الزفاف، بعد أن انصرف آخر المدعوين من الشقة الصغيرة في العجوزة، أغلق الباب وأدار المفتاح.

ناني كانت تقف في وسط غرفة النوم، لا تزال بفستان الزفاف الأبيض البسيط. يداها ترتجفان. هي تعرف ما سيحدث بعد دقائق، لأنها عاشته من قبل... أو لأنها ستعيشه بعد عشرين سنة على الربوة وهي تتذكر هذه الليلة.

رامز اقترب منها ببطء. قبلها أولًا على جبينها، ثم على فمها. يده كانت ترتجف هو أيضًا. قال بصوت منخفض:

ـ أنا... لم أفعل هذا من قبل.

هي ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة وعارفة، وهمست:

ـ وأنا أيضًا.

خلعت هي الفستان. وقف أمامه عارية تمامًا لأول مرة في حياته هو، وللمرة التي تعرفها هي منذ زمن. جسدها يافع، ثدياها صغيران متماسكان، حلمات وردية، بطن مسطح، وشعر عانة خفيف يعلو كسًّا مغلقًا تمامًا، شفران ورديان رقيقان لا يزالان يخبئان الغشاء.

رامز خلع ملابسه. قضيبه كان منتصبًا بقوة، لم يسبق له أن أدخله في جسد أحد. ارتجف وهو ينظر إليها.

أمرها بصوت مبحوح أن تستلقي وتفتح ساقيها. ركع بين فخذيها ونظر طويلاً إلى الكس المغلق. لمسه بإصبعه برفق، ثم فتح الشفرين ببطء. رأى الغشاء الوردي الرقيق يلمع في ضوء المصباح الخافت.

وضع رأس قضيبه على الفتحة الضيقة جدًا ودفع ببطء. قاوم الغشاء. دفع بقوة أكبر. فجأة تمزق. صرخت ناني من الألم الحاد، ودماء حمراء سالت على قضيبه وعلى الملاءة البيضاء. في اللحظة نفسها شعر رامز بألم غريب حاد في رأس قضيبه؛ غشاؤه الذكري الرقيق تمزق هو أيضًا من الضيق الشديد، فصرخ معها صوتًا واحدًا مختلطًا.

دخل حتى آخره داخل الكس الضيق الممزق والدامي. بدأ يتحرك ببطء أولًا، ثم بسرعة متزايدة. الدم يختلط بسوائلها ويجعل الحركة أسهل تدريجيًا. كانت تبكي من الألم واللذة معًا، أظافرها في ظهره، وهو ينيكها بقوة متصاعدة ويشتم بفحش لم يكن يعرف أنه يقدر عليه:

ـ كسك ضيق زي العسل... بدمر بكارتك... هملأك مني كله...

بعد دقائق شعر بالسائل يغلي في خصيتيه. دفع بأقصى قوة ممكنة وفرغ داخلها دفعة ساخنة كثيفة طويلة، يئن ويرتجف وهو يصب كل ما فيه في الرحم البكر. هي كانت تتشنج تحته، الدموع والدم والمني يختلطون على الملاءة.

ظلا ملتصقين وقتًا طويلًا بعد ذلك. قضيبه لا يزال داخلها ينبض، والدماء الحمراء المختلطة بالسائل الأبيض تسيل ببطء من بين ساقيها.

في الصباح التالي، حين استيقظت قبله، نظرت إلى وجهه النائم الشاب ومرّت بأصابعها على خده برفق.

الصراع الداخلي الذي سيلازمها عشرين سنة كاملة بدأ في تلك اللحظة:

هل يجوز لها أن تعيش هذا الحب كله، وهي تعرف نهايته ووسطه وبداية رحلته الثانية على الربوة؟

هل يجوز أن تمنحه هذه السنوات وهي تعلم أنها ستعود إليه يومًا وهو في الأربعين، وتنظر إليه بعينيها العسليتين وتقول له إنها من المستقبل؟

قبلته على جبينه وهمست بصوت لا يسمعه:

ـ سأعيشها معك حتى النهاية... ثم أعود لأبدأها من جديد.

ثم أغلقت عينيها، واستسلمت للنوم إلى جوار الرجل الذي كان لا يزال لا يعرف عنها شيئًا.

**الفصل العاشر**

**السنوات العشرون**

السنوات لم تمر كخط مستقيم. مرت كطبقات رقيقة تُضاف فوق بعضها، كل طبقة تخفي التي تحتها قليلًا لكنها لا تمحوها.

في السنة الأولى كانت الشقة في العجوزة صغيرة والضوء يأتي من نافذة واحدة. رامز كان يعود من المكتب متعبًا ويجدها تنتظره بطعام بسيط وابتسامة. في الليل كانا يتكاشفان كمن يكتشفان جسدًا جديدًا كل مرة. هي كانت تغمض عينيها أحيانًا وهو داخلها، وتتذكر أن هذا الجسد نفسه سيحملها بعد عشرين سنة على سرير الفيلا في المقطم وهي تبكي موت أبيها.

في السنة الثالثة انتقلوا إلى شقة أكبر في المهندسين. رامز بدأ ينجح في عمله. هي كانت تدير البيت بصمت، وترفض أي دعوة لالتقاط الصور في المناسبات. كان يضحك ويقول لأصدقائه إن زوجته تخاف من الكاميرا مثل الأطفال. هي كانت تبتسم وتغض الطرف.

السنوات الوسطى امتلأت بالروتين الهادئ: إفطار مشترك، جريدة الصباح، رائحة القهوة، صوت المذياع، أمسيات يقرآن فيها كل واحد في كتابه. أحيانًا كان يرفع رأسه منها ويجدها تنظر إليه نظرة طويلة غريبة، فيها حنان وخوف معًا. كان يسألها:

ـ في إيه يا ناني؟

فتبتسم وتعود إلى كتابها قائلة:

ـ لا شيء... فقط أحبك.

لكنها كانت في تلك اللحظات تراه شابًا في الثالثة والعشرين يجلس خلف مكتبه لأول مرة، وفي الوقت نفسه تراه رجلًا في الأربعين ينتظرها على الربوة والمطر يهدد بأن يبدأ.

مع مرور السنين بدأ الشيب يظهر في شعره عند الصدغين. وجهه امتلأ قليلًا، وصوته صار أخشن. هي كانت تراقبه في المرآة أحيانًا وهو يحلق، وتحفظ كل تغيير كمن يحفظ خريطة العودة.

في السنة الخامسة عشرة اشتروا الفيلا في المقطم. الربوة كانت على مرمى حجر. في أول أسبوع لهما هناك صعدت وحدها في المساء ووقفت تحت شجرة الكافور. المقعد الحجري كان فارغًا. جلست عليه وأغلقت عينيها. رائحة المكان كانت هي نفسها التي ستشمها بعد سنوات وهي قادمة من المستقبل. بكت بصمت تلك الليلة، ثم نزلت قبل أن يفتقدها.

الخوف بدأ يتسلل بوضوح أكبر مع اقتراب الثمانينيات من نهايتها. كلما اقترب التقويم من عام 1990 كانت تستيقظ في الليل أحيانًا وتذهب إلى الشرفة تنظر نحو الربوة المظلمة. كانت تعرف أن الآلة في المستقبل تنتظر، وأن أباها سيموت، وأنها ستعود.

في شتاء 1991 جلسا معًا أمام المدفأة. رامز كان يقرأ، وهي كانت تحدق في النار. فجأة أمسك يدها وقال:

ـ أنتِ الآنسة الوحيدة التي رفضت التصوير طوال عشرين سنة. أحيانًا أشعر أنكِ تخفين شيئًا كبيرًا.

نظرت إليه. العيون العسلية كانت هادئة وحزينة.

ـ كلنا نخفي شيئًا يا رامز. المهم أن نبقى معًا.

ابتسم هو وقبّل كفها. هي أغلقت عينيها. في الداخل كانت تقول لنفسها:

بعد أشهر قليلة سأسافر… أو أدّعي أنني سافرت.

ثم سأعود من المستقبل لألقاه على الربوة وهو لا يعرفني بعد.

وسأحبّه من جديد كأنها المرة الأولى.

في أبريل 1992 بدأت تعد الحقيبة. وضعت فيها الثوب الأبيض بعناية، وبعض الملابس القديمة، والصورة الوحيدة التي سمحت بها بالخطأ في بداية الزواج. أغلقت الحقيبة ووضعتها في دولاب حجرة النوم.

قبل أن تغادر الفيلا في الصباح الباكر، وقفت أمام سريره وهو نائم. مرّت بأصابعها على خده الذي بدأ يتغضن قليلًا، وهمست:

ـ إلى اللقاء… بعد عشرين سنة مضت، وبعد أيام قليلة قادمة.

ثم خرجت، وأغلقت الباب بهدوء خلفها.

**الفصل الحادي عشر**

**الاستعداد للقاء**

في الأسابيع الأخيرة قبل مايو 1992، كانت حنان تتحرك داخل الفيلا كمن يعيش في زمنين في اللحظة نفسها.

الصباح يبدأ عاديًا: تفتح النوافذ، تعد القهوة، تضع الجريدة إلى جوار طبق رامز. هو يقرأ ويعلق على الأخبار، وهي تبتسم وتجيب. لكن تحت الابتسامة كان قلبها يعد الأيام المتبقية على أصابعها الخفية.

الثوب الأبيض كان مطويًا في قاع الحقيبة البنية منذ أسابيع. كل ليلة تقريبًا كانت تفتح الدولاب بعد أن ينام، تخرج الثوب، تمرر أصابعها على القماش الغريب الذي صنعه أبوها قبل أن تموت الآلة معه. كانت تشمه أحيانًا، فتعود إليها رائحة المختبر تحت المنزل في الفيوم الجديدة، ورائحة الضوء الأزرق، ورائحة الخوف الأخير.

في إحدى الليالي جلست على حافة السرير وهو نائم، والثوب في حجرها. نظرت إلى وجهه في الضوء الخافت القادم من النافذة. الشيب عند صدغيه ازداد. التجاعيد حول عينيه صارت أوضح. تذكرت الشاب الذي جلس خلف المكتب في 1972، ثم تذكرت الرجل الذي سيلتقيها على الربوة بعد أيام وهو لا يعرف أن الوجه الذي أمامه هو وجه زوجته بعد عشرين سنة.

همست لنفسها، والصوت يكاد لا يخرج:

ـ هل سيراني عجوزًا؟

هل سيرفض الصورة التي في ذاكرته حين يعرف؟

الرعب كان حقيقيًا هذه المرة. ليست خائفة من شرطة الزمن، ولا من انهيار الآلة. خائفة من عينيه هو حين يكتشف. خائفة من أن ينظر إليها بعد المعرفة وينهار كل الحنان الذي جمعه لها طوال السنوات.

في الأسبوع الأخير بدأت تعد التفاصيل الصغيرة. حجزت تذكرة طائرة إلى أوروبا باسمها، واتصلت بشقيقتها هناك وطلبت منها أن تغطي الأمر إذا سأل أحد. قالت لرامز إن الزيارة ستطول أسبوعين وربما أكثر. هو حزن لكنه لم يعترض. قبّلها على الجبين في صباح السفر وقال:

ـ ارجعي بسرعة. الفيلا فارغة بدونك.

هي أمسكت وجهه بين يديها ونظرت في عينيه طويلاً. كادت تقول له الحقيقة كلها دفعة واحدة. كادت تقول: «أنا سأعود، لكن ليس من المطار... سأعود من الربوة، وسأكون أصغر، وستراني وكأنك تراني لأول مرة». لكنها ابتلعت الكلمات، وابتسمت فقط، وخرجت.

في السيارة إلى المطار لم تذهب إلى المطار.

طلبت من السائق أن يوقفها عند أول موقف تاكسي، ثم استقلت تاكسيًا آخر إلى الغرفة الصغيرة التي كانت قد استأجرتها منذ شهر في حي السيدة زينب باسم مستعار. هناك خلعت ملابس السفر، وفتحت الحقيبة، وارتدت الثوب الأبيض.

وقفت أمام المرآة الوحيدة في الغرفة. الوجه الذي نظر إليها كان وجه امرأة في الأربعين، لكنه في ضوء الغرفة الخافت بدا أقرب إلى الوجه الذي ستظهر به على الربوة. الشعر أسود كثيف، العيون عسلية، والثوب يلمع لمعانه الغريب القديم.

commença العد التنازلي الحقيقي.

بعد ساعات قليلة ستكون هناك.

سيصعد هو السلم الحجري.

وسينظر إليها من الخلف، ويتذكر الأميرة نسل شاه، ولا يعرف أن الأميرة هي زوجته التي نامت إلى جواره الليلة السابقة.

أمسكت حافة المرآة بيديها حتى ابيضت مفاصلها، وأغمضت عينيها.

الرحلة الأخيرة لم تكن عبر الآلة هذه المرة.

الآلة كانت قد ماتت مع أبيها.

هذه المرة كانت الرحلة داخل الزمن الذي عاشته هي بنفسها، خطوة بخطوة، يومًا بيوم، حتى وصلت إلى الحافة.

فتحت عينيها، وأخذت الحقيبة، وخرجت من الغرفة.

الربوة كانت تنتظر.

**الفصل الثاني عشر**

**شرطة الزمن**

في المستقبل، كانت الفيوم الجديدة ت Orthي ليلاً بأضواء زرقاء وبيضاء تنعكس على بحيرة قارون كأنها مرآة مكسورة.

تحت المنزل القديم في الطرف الجنوبي من المدينة، كان المختبر السري لا يزال يهتز من آخر موجة طاقة خرجت من الآلة. الشاشات مكسورة، والدخان الخفيف يملأ الهواء برائحة المعدن المحروق والأوزون. ناني كانت قد اختفت قبل دقائق فقط عبر الدائرة الزرقاء، لكن آثارها لا تزال موجودة: الثوب الأبيض الذي كانت ترتديه في الصور المسجلة، وبصمات أصابعها على اللوحة التحكمية، والقرص الشفاف الفارغ الآن.

أبواب الطابق العلوي انفجرت للداخل.

دخل رجال شرطة الزمن ببدلاتهم الرمادية الداكنة وخوذاتهم الشفافة. على صدورهم شعار الساعة المكسورة. القائد كان رجلًا في الخمسينيات، وجهه حاد وعيناه رماديتان بلا عاطفة. نظر إلى الشاشات المحطمة ثم إلى المقعد الفارغ في وسط الآلة.

قال بصوت بارد إلى الجهاز اللاسلكي على معصمه:

ـ الهدف استخدم الشحنة الأخيرة. الإحداثيات تشير إلى القاهرة – المقطم – مايو 1992. الخط الزمني الشخصي لـ«رامز عبد الحميد» تعرض للتداخل.

أحد الضباط الصغار سأله:

ـ هل نلاحقها هناك؟

القائد هز رأسه ببطء:

ـ لا. التداخل حدث بالفعل. أي مطاردة إضافية في الماضي قد تكسر الخط أكثر. نغلق المنطقة، ونراقب التداعيات من هنا. إذا عادت... نقبض عليها بتهمة التلاعب بالامتداد الزمني غير المرخص.

في زاوية المختبر، على الحائط، كانت لا تزال معلقة اللوحة القديمة التي كتب عليها أبوها بخط يده قبل سنوات:

«المستقبل امتداد طبيعي للماضي. لا تناقض. من يحاول فصل أحدهما عن الآخر هو من يصنع الكارثة».

القائد نظر إلى اللوحة طويلاً، ثم أمر بتمزيقها.

في اللحظة نفسها، على بعد سبعين سنة إلى الوراء، كانت ناني تقف على الربوة في ثوبها الأبيض، تنتظر الرجل الذي لم يرها بعد.

لكن في المستقبل، كانت التسجيلات الصوتية القديمة لا تزال محفوظة في أرشيف شرطة الزمن. أحدها كان لصوت أبيها وهو يحذرها قبل أشهر من موته:

ـ إذا ذهبتِ... أي وجود لكِ في الماضي قد يغيّر المستقبل. قد يمحو أشياء، أو يخلق أخرى. هل أنتِ مستعدة لتحمل النتيجة؟

وصوتها هي تجيبه بهدوء، في التسجيل نفسه:

ـ أبي... أنا لا أغيّر. أنا فقط أعود إلى المكان الذي كنتُ فيه دائمًا. أنت علّمتني أن الامتداد لا ينكسر. فقط يتغيّر شكله.

القائد أطفأ التسجيل. أمر رجاله بجمع بقايا الآلة وتحويلها إلى رماد إلكتروني. ثم خرج من المختبر ونظر إلى سماء الفيوم الجديدة المليئة بالأنوار.

همس لنفسه، والصوت يضيع وسط صفارات الدوريات:

ـ الأحمق كان يؤمن بنظريته حتى النهاية... وابنته أيضًا.

خلفه كان المختبر يُغلق إلى الأبد.

وأمامه كان الخط الزمني يرتجف بهدوء، ك genug أن يحس به فقط من يعرف أين يضع إصبعه على النبض.

**الفصل الثالث عشر**

**اللحظة على الربوة من جديد**

في مايو 1992، وقفت ناني على الربوة قبل أن يصل رامز بنحو عشر دقائق.

الثوب الأبيض كان يلتصق بجسدها مع النسيم الخفيف. تحتها امتدت القاهرة كبحر من الأنوار البرتقالية والرمادية، تمامًا كما كانت تراها في ذكرياتها طوال عشرين سنة. شجرة الكافور فوقها، والمقعد الحجري إلى يسارها، والسلم الحجري يهبط في انحناء مألوف.

كل شيء كان في مكانه.

قلبها فقط كان خارج المكان.

سمعت وقع الخطوات قبل أن تراه. الخطوات الثقيلة الهادئة نفسها التي حفظتها من ليالي الفيلا، ومن الصباحات في المكتب القديم، ومن السنين التي نامت فيها إلى جواره. ارتجف شيء في صدرها. أرادت أن تلتفت فورًا وتجري نحوه وتنادي باسمه كما كانت تنادي طوال عقدين. لكنها لم تفعل.

ظلت ظهرها إليه، تنظر إلى المدينة، كما خططت.

اقترب. توقف على بعد أمتار. سمعت صوت إشعال السيجارة، ثم صوت الزفير. بعد لحظة بدأ يمشي نحوها. كل خطوة كانت تقرع في أذنيها كساعة زمنية تؤكد أن اللحظة قد جاءت أخيرًا.

التفتت حين اقترب بما يكفي.

الوجه الذي رأته كان وجهه بعد عشرين سنة من الزواج: الشيب الخفيف عند الصدغين، التعب الهادئ في العينين، التجاعيد الرفيعة التي كانت تمرر أصابعها عليها في الليالي القديمة. لكنه كان ينظر إليها الآن كغريبة. كفتاة يلتقيها لأول مرة.

ابتسمت الابتسامة الخجولة القصيرة التي تدربت عليها أمام المرآة مئات المرات. الصوت الذي خرج منها كان ناعمًا ومتحكمًا فيه:

ـ مساء الخير.

سمعته يرد، والصوت نفسه الذي كانت تعرفه، لكنه الآن يحمل دهشة الرجل الذي يرى جمالًا غير متوقع في مكان فارغ:

ـ مساء الخير... لم أركِ هنا من قبل.

الألفة التي شعر بها هو كانت الألفة نفسها التي شعرت بها هي، لكن من الجهة المعاكسة. هو يحس بها كأنها ذكرى غامضة بلا اسم. هي تحس بها كذاكرة كاملة لها اسم وتاريخ ورائحة وجسد.

تحدثا عن القاهرة، عن المكان، عن الثوب. حين قال مازحًا «أبعد من أين؟ من الفيوم؟ من الصعيد؟» أجابت كما كان يجب أن تجيب:

ـ أبعد من ذلك بكثير.

ضحكت الضحكة الخافتة المطلوبة، وهو ضحك معها. في الداخل كانت تريد أن تقول له: «أنا حنان. أنا التي نامت على كتفك عشرين سنة. أنا التي رفضت الصور كي لا تكسر هذه اللحظة. أنا التي جئت من بعد موت أبي لأراك من جديد».

لكنها لم تقل شيئًا من ذلك.

حين مدت يدها وصافحته، أحست بحرارة كفه الكبيرة المألوفة. أصابعها كانت باردة كما دائمًا. هو لم يعرف لماذا يشعر أن هذه اليد قد أمسكت يده آلاف المرات من قبل.

بعد قليل اعتذرت وقالت إنها يجب أن تعود. ابتعدت بضع خطوات، ثم التفتت مرة أخيرة وابتسمت. الابتسامة هذه المرة كانت أصعب. خلفها كانت دموع لم تسمح لها بالسقوط.

نزلت من الجانب الآخر للربوة، حيث لا يراها، وجلست على صخرة منخفضة. وضعت يديها على وجهها وأخذت نفسًا طويلًا مرتجفًا.

اللعبة قد بدأت.

هو الآن في الفيلا الفارغة، يفكر في الفتاة ذات الثوب الأبيض والعينين العسليتين.

وهي تعرف أنه سيعود غدًا، وبعد غد، وأن الخوف في عينيها سيزداد يومًا بعد يوم حتى الليلة التي سيبكيان فيها معًا على السرير، وحتى الليلة الممطرة التي سيفتح فيها الحقيبة ويكتشف الحقيقة.

مسحت وجهها، ونهضت، ونظرت مرة أخيرة إلى المقعد الحجري الفارغ تحت شجرة الكافور.

همست، والصوت يضيع في رياح المقطم:

ـ إلى الغد... يا رامز.

ثم اختفت في الظلال، تاركة وراءها الرجل الذي أحبته مرتين: مرة وهو يعرف، ومرة وهو لا يعرف بعد.

**الفصل الرابع عشر**

**الاكتشاف**

تحت المطر الغزير في ليلة الخامس عشر من ديسمبر، وقف رامز على الربوة والثوب الأبيض مبلل بين يديه.

الماء كان ينزل من شعره إلى وجهه إلى عنقه دون أن يحاول إيقافه. المقعد الحجري غارق، وشجرة الكافور تميل مع الريح، والقاهرة تحتها تبدو كأنها تغرق في ضباب مائي رمادي.

الكلمات كانت تتساقط داخل رأسه واحدة بعد الأخرى، مثل المطر نفسه.

الثوب.

الحقيبة.

الصورة القديمة في الأزبكية.

رفضها المستمر للتصوير طوال عشرين سنة.

الخوف القديم الذي كان يراه في عينيها أحيانًا ولا يفهمه.

الليلة التي جاءت فيها بالثوب الأسود وبكت على صدره وقالت «إذا لم أتمكن... تذكر أنني أحبك».

الألفة التي أحس بها منذ اليوم الأول على هذه الربوة، كأنه يعرفها منذ الأزل.

كل شيء انقر في مكانه أخيرًا.

ناني لم تكن فتاة قادمة من مستقبل بعيد مجهول.

ناني كانت حنان.

حنان التي عاشت معه عشرين سنة كاملة.

حنان التي نامت إلى جواره، وأكلت معه، وبنت البيت معه، ورفضت أن تترك أي صورة لها كي لا تكسر هذه الدائرة حين تعود.

الفرق العمري الذي أرّقه في الأيام الأولى كان وهمًا. هي لم تكن في الرابعة والعشرين حقًا حين التقيا على الربوة. هي كانت في الأربعين مثله، لكنها جاءت من نقطة أبعد على الخط نفسه، مرتدية وجهًا وذاكرة وجسدًا يعرفان كل شيء عنه بينما هو لا يعرف عنها شيئًا بعد.

جلس على المقعد الحجري المبلل، والثوب في حجره. المطر يطرق كتفيه. فهم لماذا كان الخوف في عينيها يزداد يومًا بعد يوم. لم يكن خوفًا من الآلة فقط، ولا من شرطة الزمن. كان خوفًا منه هو. خوفًا من اللحظة التي يكتشف فيها الحقيقة وينظر إليها نظرة مختلفة. خوفًا من أن يرفض المرأة التي صارت في الأربعين بعد أن أحب الفتاة التي بدت في العشرينات.

أغلق عينيه. صور العشرين سنة مرت أمامه كشريط سريع: المكتب في قصر النيل، ليلة الزفاف والدماء على الملاءة، الشقة في المهندسين، الفيلا في المقطم، الليالي الهادئة، الأسئلة التي كان يطرحها عن الماضي فتجيب بغموض، والمرات التي كانت تحدق فيه كأنها تحفظ وجهه لرحلة قادمة.

فتح عينيه. المطر كان لا يزال ينزل، لكنه لم يعد يشعر ببرودته.

همس إلى الهواء المبلل، والصوت مبحوح:

ـ أنتِ عشتِ عشرين سنة وأنتِ تعرفين... وأنا كنت أعيشها وأنا لا أعرف.

رفع الثوب الأبيض المبلل إلى وجهه. الرائحة كانت لا تزال هناك، خفيفة ومختلطة برائحة المطر: رائحة شعرها، ورائحة شيء معدني قديم، ورائحة الزمن نفسه.

نهض ببطء. نزل السلم الحجري خطوة خطوة. الماء يسيل من المعطف ومن الشعر ومن الثوب الذي يحتضنه كأنه يحتضنها هي.

في أسفل التل توقف لحظة ونظر إلى الفيلا المظلمة.

هي ستعود الليلة.

أو غدًا.

أو بعد أيام.

لكنها ستعود، لأنه الآن يعرف أنها لم تذهب إلى أوروبا أبدًا. هي كانت هنا، أو في الطريق إلى هنا، أو تنتظر اللحظة التي يفتح فيها الحقيبة ويفهم.

مسح وجهه بيده المبللة، وابتسم ابتسامة صغيرة متعبة وحانية في آنٍ واحد.

الخوف الذي كان في عينيها... كان خوفها منه.

أما هو، فقد توقف عن الخوف في هذه اللحظة بالذات.

سار نحو الفيلا تحت المطر، والثوب الأبيض لا يزال بين ذراعيه، كمن يحمل دليلًا وحيدًا على أن الحب قادر على أن يعبر الزمن مرتين، ويعود إلى نفسه في النهاية.

**الفصل الخامس عشر**

**تحت المطر**

رامز وقف عند ناصية الشارع المؤدي إلى الفيلا منذ أكثر من ساعة.

المطر كان لا يزال ينزل، أخف من الليلة السابقة لكنه مستمر. المعطف مبلل، والثوب الأبيض الذي حمله من الربوة مطوي بعناية داخل كيس بلاستيكي تحت ذراعه. كل سيارة تمر كانت تجعله يرفع رأسه، ثم يعود ينظر إلى نهاية الطريق.

بعد منتصف الليل بقليل ظهرت سيارة أجرة. توقفت. الباب فتح ونزلت هي.

حنان.

لا ناني الفتاة ذات الوجه شبه الطفولي، بل حنان كما يعرفها بعد عشرين سنة: الشعر الأسود المبلل بالمطر يلصق بخديها، التجاعيد الرفيعة حول العينين، النضج في ملامح الوجه، والجسد الذي حمل سنواتهما معًا. لكنها حين اقتربت تحت ضوء الشارع الخافت، كانت العيون هي هي. العسلية نفسها، والعمق نفسه، والخوف الذي كان يسكنها طوال الأسابيع الأخيرة.

وقفوا مقابل بعضهما دون أن يتكلما أولًا. المطر يطرق كتفيهما. رامز مد يده ولمس خدها المبلل بإصبعه. الجلد دافئ تحت الماء البارد. همس، والصوت مبحوح من الانتظار والمطر:

ـ ناني...

ـ حنان.

ارتجف شيء في وجهها. الخوف الذي سكن عينيها عشرين سنة، والذي ازداد في الأسابيع الأخيرة حتى كاد يبتلعها، انكسر فجأة. امتلأت العيون بدموع اختلطت بالمطر. لم تقل شيئًا. فقط أومأت برأسها مرة واحدة، كمن يعترف بكل شيء دفعة واحدة.

سحبها إليه. احتضنها وسط الشارع الفارغ والمطر. جسدها يرتجف ضد جسده، لا من البرد فقط. بعد لحظة رفعا رأسيهما وسارا متشابكي الأيدي نحو الفيلا دون كلمة إضافية.

الباب أغلق خلفهما. المعاطف سقطت على الأرض. في غرفة النوم كان الضوء خافتًا والمطر لا يزال يضرب النوافذ.

رامز لم ينتظر. مزق ملابسها بسرعة شبه غاضبة من الانتظار الطويل. ظهرت أمامه عارية كما لم يرها منذ أسابيع: ثديان أكبر وأثقل مما كانا في شبابها، حلمات داكنة منتصبة من البرد والإثارة، بطن فيه ليونة السنوات، وكس أكثر امتلاءً يعلوه شعر عانة كثيف مبلل. هو خلع ملابسه. قضيبه كان منتصبًا سميكًا وعروقه بارزة، جاهزًا كأنه ينتظر هذه اللحظة منذ أن فتح الحقيبة.

أركعها على السرير على أربع. وقف خلفها، بصق على كسها المفتوح، ثم أدخل قضيبه دفعة واحدة حتى آخره. صرخت صرخة مكتومة امتزج فيها الألم باللذة والارتياح. بدأ ينيكها بعنف من الخلف، يمسك بخصرها بقوة ويضرب بحوضه حتى يضرب كيساه بظرها مع كل دفعة. صوت ارتطام اللحم باللحم يملأ الغرفة مع صوت المطر.

كانت تئن وتطلب بصوت مكسور:

ـ نيكني زي الكلبة... املأ كسي... أعمق...

أخرج قضيبه فجأة ووضعه على فتحة شرجها. دفع دون تحضير كافٍ. صرخت من الألم الحاد، لكن يديها ظلتا ممسكتين بالملاءة. دخل ببطء ثم بقوة حتى اختفى كله داخل الطيز الضيق. نيكها هناك دقائق طويلة، يضرب بقسوة ويشتم بفحش، قبل أن يعود إلى كسها ويبدأ في الدفع الجنوني الأخير. شعر بالسائل يغلي، فدفع بأقصى ما يستطيع وفرغ داخلها دفعة ساخنة كثيفة طويلة، يئن كأنه يفرغ عشرين سنة من الانتظار والسر والخوف دفعة واحدة.

لم ينتهِ بعد.

أدارها على ظهرها وهو لا يزال يتنفس بصعوبة. ركب على صدرها، وأمسك رأسها، وأدخل قضيبه في فمها حتى اختنق. دفعت رأسها للأمام لتقبله كله. بعد دقائق قليلة ارتجف من جديد وفرغ مرة ثانية في حلقها، المني يسيل من طرف فمها على ثدييها وهو يئن باسميها معًا:

ـ ناني... حنان...

بعدها سقط إلى جوارها. الجسدان مبللان بالعرق والمني والمطر الذي لا يزال عالقًا في شعريهما. هي وضعت رأسها على صدره، وهو يمرر يده على شعرها المبلل.

الخوف اختفى من عينيها أخيرًا.

في الخارج كان المطر يخف تدريجيًا، والأنوار البعيدة للقاهرة تومض كأنها تعرف أن الدائرة قد أُغلقت.

**الفصل السادس عشر**

**الزهرة**

بعد أسابيع، في صباح هادئ من شهر يناير، استيقظ رامز قبلها بقليل.

الغرفة كانت مضيئة بنور شتوي ناعم. المطر الذي رافق الاكتشاف والعودة كان قد انقطع منذ أيام، وترك وراءه هواءً نظيفًا ورائحة تراب مبتل لا تزال عالقة في الحديقة. حنان كانت نائمة على جنبها، شعرها الأسود منتشر على الوسادة، ووجهها هادئ لأول مرة منذ سنوات طويلة. الخوف الذي سكن عينيها قد اختفى تمامًا، كأنه لم يكن.

قام بهدوء كي لا يوقظها. ارتدى روبًا خفيفًا ونزل إلى المكتب. فتح الدرج السفلي وأخرج الدفتر القديم الذي كان يكتب فيه أحيانًا. قلب الصفحات حتى وصل إلى القصيدة التي لم يكن قد أنهاها من قبل:

*الزهرة التي رأيتها في الحلم*

*ظلت على الوسادة بعد أن استيقظت*

*رائحتها لم تكن من هذا العالم*

*ومع ذلك... كانت حقيقية تمامًا*

قرأ الأبيات ببطء. هذه المرة لم تبدو ناقصة. أمسك القلم وكتب تحتها سطرًا أخيرًا بخط هادئ:

*والزمن الذي ظننته يفصلنا*

*كان فقط الطريق الذي يعيدنا إلى بعضنا.*

وضع القلم. ابتسم ابتسامة صغيرة متعبة وراضية.

من النافذة كان يستطيع أن يرى طرف الربوة فوق. المقعد الحجري لا يزال هناك تحت شجرة الكافور. المكان الذي بدأت فيه الدائرة، والمكان الذي أُغلقت فيه.

سمع صوت خطوات خفيفة خلفه. حنان دخلت المكتب وهي تشد روبها حول جسدها. اقتربت ووقفت إلى جواره، ووضعت رأسها على كتفه كما كانت تفعل في الليالي القديمة، وكما فعلت على الربوة حين كانت لا تزال «ناني».

نظر إليها. العيون العسلية نفسها، لكن بدون الخوف. فقط هدوء عميق ومعرفة مشتركة.

قالت بصوت خافت لا يزال فيه بقايا النوم:

ـ صباح الخير... رامز.

أجابها، وهو يمرر يده على شعرها:

ـ صباح الخير... ناني.

ـ حنان.

ابتسما معًا. لم يعد هناك حاجة إلى تفسير أكثر.

خارج النافذة كانت القاهرة تستيقظ ببطء، والزمن يمر كعادته: لا إلى الأمام فقط، ولا إلى الخلف فقط، بل كامتداد واحد متصل، يحمل في طياته كل اللحظات التي عاشاها معًا... مرتين.

الزهرة التي ظهرت في الحلم بقيت على الوسادة.

ورائحتها، رغم كل شيء، كانت حقيقية تمامًا.